الآباء المعمرون :

١ ــ القديس مكاريوس الكبير ٩٠ عاما

٢ ــ القديس أنبا بؤنس قص شيهيت ٩٠ عاما

القديس أنبا بؤنس

كبير قسوس شيهيت

(٥٨٥ ــ ٦٧٥ م)

يوسف حبيب

صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم

الانبا شنودة الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

بداية السيرة

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

جاء فى مخطوطة سير القديسين بدير البرموس .

« سيرة أنبا يؤانس(١) أول القسوس ايغومانس دير أنبا مقار بجبل شيهيت سطرها العابد لله القس أنبا يؤانس أبيه الروحانى الذى صار كاتباً للثلث الطوبى أنبا أغاثو البطريرك(٢) تنيح فى ٣٠ كيهك ٣٩١ ش (٦٧٥م) بالغاً من العمر ٩٠ عاما بسلام من الله » .

---

١) فى بعض المخطوطات كتب « أنبا يحنس القمص » .

٢) أغاثو البطريرك التاسع والثلاثون (وفى القرن السابع) كان صالحا كاسمه (أغاثو كلمه يونانيه معناها صالح) وكان قساً فى الكنيسة مع البطريرك أنبا بنيامين ٣٨ ، وهو من نواحى الاسكندريه وذكر عنه أنه كان يقرىء العلمانيين فى مدينه الاسكندريه ويطوف ليلا يثبت الارثوذكسيين المختفين ويقفى حوائجهم ويناولهم من الاسرار المقدسه ، وفى النهار كان يحمل فقه فيها آلات التجارة ويتظاهر أمام المضطهدين بأنه تجار حتى لا يعترضوا سبيله ومكث هكذا عشر سنوات حتى رجوع البابا الانبا بنيامين بعد الفتح العربى فعينه وكيلا له فى تدبير البيعه ولما تنيح البابا أنبا بنيامين (٦٢٢-٦٦١) جلس القديس أغاثو على كرسى البطريركيه ، وقد عانى كثيراً من الاضطهادات ، وقد تضايق من تصرفات ثيودوسيوس وهو من جماعه

« صيت حسن هو ذكر القديسين كما هو مكتوب أن ذكر الصديق يدوم الى الابد ، وكقول بولس الرسول ، اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله » ، انظروا الى نهاية سيرتهم تمثلوا بايمانهم عب ١٣ : ٧ ».

أنه ربح عظيم لنا سماع سيرة هذا الأب الطاهر ...

الخلقيدونيين، ولما شخص إلى دمشق أخذ أسراً من الخليفة بنساط بمقتضاه على شعب الاسكندريه، وما كان البابا يستطيع الخروج من باب قلايته. وقد أوصى ثيؤدوسيوس أتباعه قائلا : « إذا رأيتم بابا الارثوذكسيين ليلا أو نهاراً إرجموه بالحجارة وإقتلوه وأنا المجاوب عنه »، وكان غرضه من ذلك أن يكون بطريركا عوضه، أما البابا أغاثو فكان يصلى من أجله حسب وصيه السيد المسيح .

وفى أيام هذا البطريرك عمرت البيعه التى على اسم آبا مقار وكثر الاخوة حتى أنهم بنو القلالى بقرب الاسوار الحاجه للدير ..

وقضى البابا أغاثو بقيه أيامه مهتما برسامه الكهنه المستحقين للشرطونيه الخائفين من الله وكان الناس يشكرون الله على أمثاله حتى أكمل أيام حياته بشيخوخه حسنه . وقد أقام ١٧ سنه على كرسيه وتنيح فى ١٦ هاتور سنه ٣٨٣ ش ٦٦٧م، وجعل جسده مع البابا بنيامين .

وبعد نياحته هرع ثيؤدوسيوس الخلقيدونى إلى البطريركيه وأوصد أبوابها وختمها بالشمع الاحمر فاستاء الارثوذكسيون من هذه الوقاحه واستمات أرخن بسخا يدعى اسحق عليه بوالى المدينه ولما رفع الامر إلى الوالى رفع هذا الظلم . أما ثيؤدوسيوس فقد انتقم منه الرب وأصيب بالاستسقاء ومات شر ميته .

الفصل الأول

حياته الاولى ورسامته راهباً ثم قساً

ولد حوالى سنة ٥٨٥ م فى بلدة شبرا ميليسين (١) وإن كان التاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن فترة شبابه وحياته الاولى إلا أنه من الواضح أنه كان يحيا حياة طاهرة وكان إناء مقدساً منذ حداثته يواظب على الصوم والصلاة والاعتراف والتناول ومطالعة الكتب المقدسة حتى أنه اشتاق إلى سيرة الرهبنة فى وقت مبكر وتزيا بالزى الملائكى وهو بعد شاب يبلغ من العمر حوالى الثمانية عشر ربيعاً (٢) حوالى سنة ٦٠٣ م.

ويقول د أوليرى فى كتابه «قديسو مصر» أنه ولد مابين ٥٨٥-٦٠٥م، وبينما ذكر ايفلين هوايت فى كتابه أديرة وادى النطرون الجزء الثانى أنه ولد حوالى سنة ٥٨٥م وذلك أرجح لان أكثر من مصدر أثبت رسامته قساً حوالى سنة ٦٤١م وكان

---

١) من أعمال «صا» وهى قرية صا الحجر المشهورة بمركز كفر الزيات.

٢) ذكر ايفلين هوايت فى كتابه أديرة وادى النطرون أنه ترهب وكان عمره ١٨ سنة أى حوالى سنه ٦٠٣م،

لهذه الرتبة أهينها فلم يكن ليتقلدها إلا من كثرت خبراته، وإنه أسر ثلاث مرات آخرها كانت فى سنة ٦٣١م وكان كاهناً .

وأن القديس عندما دخل إلى سيرة الرهبنة وإبتدأ بالاعمال الصالحة بتعزية عظيمة واشتياق كبير وافترق عن الاهل والاقارب والاصدقاء وكل شهوات العـــالم كان يمضى قدما فى التقشفات الصعبة والعيشة الضيقة والرقاد على الارض وفى الليالى السهر الكثير حتى استطاع أن يقطع أفكار الجسد ، هذه التى تصيرنا أعداء الله .

صار هيكلا طاهراً لله ونال نعمة جزيلة وكان ينظر إعلانات كثيرة ودفعات كثيرة رأى القديسة مريم لأنه كان ممتازاً فى طهارته ولانه اقتنى لنفسه اشتياقا كبيراً فى محبة والدة الإله القديسة مريم حتى أنه كان يعمل تذكارها المقدس فى يومها كل شهر .

وذكر عن تقشفاته أنه جاءت مرة الاربعين المقدسة فارتبط بفضيلة ألا يأكل طبيخاً طيلة هذه المدة .

ولما أرادوا أن يقيموه قسساً ما كان يريد أن يقبل هذه الرتبه ولكن باعلان من قبل الرب قبل هذه الرسالة .

الفصل الثانى

أســـر القديس

كان ايوحنا ظروف مشابهة لدانيال القمص فكلاهما أخذ أسيراً ثلاث مرات ، بيد أن الاول - كما يبدو من سيرته - قد ذاق صنوف العذاب أكثر وكانت مدة أسره أطول .

أننا نعلم من سيرة الانبا صموئيل بالقبطية بعض الامور فيما يختص بأسر القديس يوحنا للمرة الثالثة فانه لما وصل طومس لاون الى البرية ٦٣١م ، كان القديس يوحنا متغيباً عن دير القديس مكاريوس فقد كان بعيداً فى الصحراء الداخلية يخفى كنوز الكنيسة .

وهكذا كان الآباء الرهبان فى غاية الحرص واليقظة فكان إذا حدث إضطراب بسبب هجوم البربر أو إضطهاد بسبب المجمع الخلقيدونى أو لأى سبب آخر يبادرون إلى إخفاء كنوز الدير، ولم يهملوا شأن الكتب أيضا فـــكانوا يضعونهـا فى صنـاديق ويخبئونها . والمخطوطات النفيسة التى وجدهـا الثرى مرجان فى خرائب دير الحامـولى بالفيوم سنة ١٩١٠ تبين ذلك .

كان القديس يحنس يتجول فى الصحراء وفوجىء بالبربر وكانوا يتخذون مكاناً قرب واحة سيوه مقراً لهم (١) كما ذكر ايفلين هوايت، ولم تكن هناك غارة على الاديرة فى ذلك الوقت وبعد حوالى أربع سنوات أى سنة ٦٣٥م لحقه الانبا صموئيل فى الاسر أثناء عودته من الإسقيط إلى الفيوم، لكن مدة أسر الانبا صموئيل كانت قصيرة بينما استمر القديس يوحنا أسيراً لسنوات عديدة وربما كان قد تأخر أسره إلى قرب الفتح العربى.

ومن قصة الانبا صموئيل بمخطوطات الاديرة - نستطيع أن نعرف بعض التفصيلات عن أسر القديس أنبا يحنس للمرة الثالثة أما فى المرتين السابقتين فلم تترك لنا المصادر التاريخية ما نستطيع أن نستدل منه على معلومات خاصة بالقديس فى هذا الشأن. كما أنها تبين إضطهـــاد الخلقيدونيين وسوء معاملتهم للقديس أنبا صموئيل.

---

١) يرى B. Amélineau هذا على أساس أن أنبا صموئيل استغرق ١٦ يوما ليعود من مكان أسره إلى الفيوم، وهذه المدة تكفى لهذه الرحلة - وخالفه بعضهم.

لقـاء فى الاسر

قد تضمنت مخطوطة دير البرموس لسيرة الأنبا صموئيل وصفا لهذا اللقاء المؤثر بين القديس الانبا يحنس والقديس الانبا صموئيل القلونى فى الاسر. ذكرت المخطوطة مايلى :-

« ... وبعد أيام قليلة وإذا بالبربر قد أقبلوا يجتازين فى البرية يطوفون الاماكن وينهبون أموال السكان فى البلاد القريبة من البرية ويسبون من قدروا عليه إلى كورتهم، وبتدبير من الله أعلم أهل البلاد القريبة من البرية أن البربر قادمون فأسرعوا وأخذوا نساءهم وأولادهم وتركوا منازلهم وهربوا، ولما كان الليل دخل البربر البلاد واخذوا كل ما وجدوه ومشوا متوغلين فى البرية حتى وصلوا إلى الوادى المعروف بالقلون فى طريقهم إلى كورتهم، وكان القديس أنبا صموئيل داخل الحديقة قبل الكنيسة ينظف النخيل، وبينما كان يعكف على العمل أحاط البربر به وأمسكوه وضربوه ضرباً مؤلما ... ولما أخـــذ البربر أنبا صموئيل إلى كورتهم باعوه كعبد لاحد أكابرهم، وبتدبير من الله أنفق بيعه مع أنبا يوحنا قص شعيبيت فى طريق القرية التى بيعا فيها. وأرسل القديس أنبا صموئيل ليرعى الجمال ».

حالة القديس فى الاسر

لما كان أنبا صموئيل يمضى إلى العمل فى الحقل كان يجتمع مع أنبا يوحنا ويتكلمان بكلام الله ويعزيان بعضهما بعضا عن الاتعاب التى قبلاها ، وكان يصليان صلوات كثيرة وطلبات وتسابيح روحانية ويعطيان المجد للمسيح فى كل وقت إذ جعلهما مستحقين أن يجتمعا فى كورة بعيدة عابدة للأوثان، وقد فشل المر فى إقناعه بعبادة الشمس وفى إغرائه بالنساء لإفساد طهارته وعبادته ، وباعوه إلى أحد الخلقيدونيين .

وكان أنبا يوحنا وقد سبق أنبا صموئيل فى الاسر يحوالى أربع سنوات يعزيه ويقول له : « كن فى غاية التشدد واحترس يا أخى لئلا يكلفك هؤلاء السجود للشمس وكن قوى القلب ولا توافقهم على ما يفعلونه، فقد ضربونى ضرباً مبرحا من أجل هذا الامر ، وهذه هى عادتهم إذا مارأوا الشمس طلعت يردون وجوههم للشرق ويسجدون للشمس قائلين : « حسناً قدومك يا سيدنا الشمس لانك أضأت علينا ظلمة الليل»، وقبيل غروبها

يديرون وجوههم إلى الغرب ويسجدون لها قائلين : «ياسيدنا الشمس تمضى وتتركنا فى ظلمة الليل أسرع وأطلع وأضىء علينا » . . . !!

وكان الانبا صموئيل فى الحقل مع القديس أنبا يحنس القمص وكانا يرعيان الجمال ويمجدان المسيح نهاراً وليلا بصلوات وتسابيح روحانية مكملين الخدمة حسناً .

وداع القديسين :

حدث بعد ذلك أن عتق الانبا صموئيل من الاسر وتقابل مع القديس أنبا يحنس ولم يشأ أن يفارقه ويتركه وحده فى تلك الكورة ، وكان أنبا يحنس يطلب إليه قائلا: « بما أن الله عتقك أيها الاخ الحبيب فلاتجلس ههنا بسببى لكن اذهب إلى مكانك الذى أعده الرب لك ، وصل على المكان الذى أنت ذاهب اليه » . فقال له القديس أنبا صموئيل : « تحفظ يا أخى فان كل شىء قد حل فى سيحل بك وسيكبلون يديك بالحديد مع امرأة كما فعلوا بى ، فتحفظ ولاتدع الشهوة تقوى عليك لكى تخلص، وبعد ذلك يأتى خلقيدونى وتباع له فيأخذك بعيداً وإن أنت

صبرت على الامانـــة فسيطلقك الله بسلام ، ثم استودعه الله ومضى إلى مسكنه الذى أعده له الرب .

يالغزارة الدموع،دموع الافتراق،ما أحرها دموع الوداع قال الانبا يحنس لأنبا صموئيل : « استودعك الله» فقال له :

« لن ترانى بعد الآن فى الجسد » ثم قال : « لكنه إن كنا لانرى بعضنا بعضا فى الجسد فأننا نرى بعضنا بعضا بالروح » . ثم قبلا بعضهما بعضا وأفترقا بألم عظيم، وأنطلق القديس أنبا صموئيل إلى دير القلمون .

آلام القديس فى الاسر :

وقد لاقى القديس أنبا يحنس عذاباً أليماً وذاق كثيراً من الآلام وهو فى الاسر ووصفت مخطوطة سير القديسين بدير البرموس ضمن سيرته العطرة أعمال البرابرة النجسة ومحاولتهم معه وفيما مايلى : -

« .. أسمعوا الآن لاعلم محبتكم للإله بهذا الامر الذى سمعناه من كثيرين يقولونه عن أبينا الطوباوى »: لما حمله البربر معهم فى السبى نالته أتعاب كثيرة منهم ، إما من جوع أو من أعمالهم النجسة التى كانوا يصنعونها . ومن بين هذه الاعمال ماذكر عنه

أن أمرأة أحد البرابرة ألقت عينيها على القوى أنبا يحنس، تريد من قبل الشيطان أن تحله من طهارته ، مثلما مثل تلك المصرية التى ألقت عينيها على يوسف فهذه أيضا صنعت مثلها ، وليست وحدها التى فعلت هذا بل كثيرات أخريات صنعن هذا الامر وضيقن عليه، وهو بالحقيقة مثل حجر الماس كان لايدع فكراً نجساً يدخل إلى قلبه البتة، ومن قبل نعمة الله التى تدبره خلص من الفخ الذى نصبه له الشيطان وحفظ طهارته مثل يوسف ، انها لقوة عظيمة هذه أن يقع واحد فى تجربة ويجاهد فيغلب.

هذا هو الجهاد العظيم بالحقيقة الذى يستحق كرامة جزيلة. وذكر لنا سيدنا البطريرك أنبا يؤانس رئيس أساقفة الاسكندرية (الـ ٤٠) ذلك أيضا فى رسالته التى كتبها وهو متألم القلب من أجل انتقال أبينا الطوباوى من هذا العالم، ولاجل عظم اشتياقه ومحبته له وضع رسالة بين فيها كرامته وأورد فيها ذكر هذه الفضيلة الحسنة (١).

---

١) وفى سيرة القديس أنبا صموئيل المعترف خبر مماثل وهو يتضمن ربطه بقيد من حديد مع جارية اشتهرت بالوقاحة ، كما فعلوا مع القديس أنبا يحنس ، الامر الذى جعل القديس يضطرب ويحزن ويصرخ الى الرب طالباً إنقاذه، وقد خلصه الرب بعد جهاد كثير ووقت ليس بقصير اذ فكه =

وفى تلك الايام التى عاشها القديس فى ذلك الموضع كان يعمل كل يوم ويعطونه قطعاً معدودة من العملة النحاسية وخبزتين وكان يترك واحدة لنفسه والخبزة الاخرى يعطيها صدقة، أما القطع النحاسية فكان يعطيها للبربرى الموكل بحراسته، وكان فى ذلك الموضع مقيما على عبادته وفضائله دائماً.

خـــلاص القديس من البربر :

كان القديس أنبا يؤانس يطلب إلى الله أن يخلصه من ضيقات الاسر وكان يلتمس حيلة ليخرج ويخلص من أيدى البربر، وكانوا يحرسون أبواب المدينة نهاراً وليلا، فكان يطلب إلى الله صاحب الرأفات العظيمة أن يهبه الخلاص منهم. وكانت هناك إمرأة عجوز جالسة عند باب المدينة فكان يقول فى نفسه، إذا أراد الرب خلاصى فأنا أهرب دون أن تنظرنى هذه المرأة، وقد كان خرج القديس ولم تنظره العجوز وهكذا خلص من أيدى البربر.

= بعض الاشخاص من القيد وكان قد أجرى بعض آيات الشفاء من بينها شفاء رجل مقعد من بطن أمه، أذاع الخبر على جميع الناس عندما شفى فانطلقوا إلى القديس يطلبون بركته، وقد وجدوه مقيداً فك بعضهم القيد الحديدى وهكذا خلص من التجربة وخرج منها نقياً كما يخرج الذهب من بوتقة النار.

كان خروجه ليلا ولم يكن يعلم إلى أين يمضى. لـكن الله الذى هدى بنى إسرائيل فى البرية بعمود النار هدى أيضا القديس فنظر نوراً يتقدمه حتى أتى به إلى موضع رجل شيخ كان فى دير صغير على جزيرة، كان من عادته أن يشترى مسيحيين كثيرين من سباهم البربر. ولما علم البربرى الذى كان أبينا القديس عنده أنه قد هرب أسرع واقتفى أثره إلى أن وجده عند الشيخ. ولما رآه البربرى امتلأ غضباً وهم بقتله من شدة حنقه عليه، فلما رأى الشيخ ذلك قال له لاتصنع به شراً فأنا ما أتركه يمضى وأعطاه بعض قطع من النقود النحاسية.

ولما رأى الشيخ فضائل القديس أنبا يحنس أراد أن يقيم عنده لكن القديس لم يرد لان ذلك الشيخ كان خلقيدونياً، وكان يطلب حيلة ليهرب إلى مقره، وأن الله الصالح دبر له أمره وأرسل له معونه وأنقذه وأوصله إلى مقره آمنا معافى من كل مرض.

الفصل الثالث

رسامة القديس قصاً

بعد خروجه من الاسر الاخير رسم قصاً حوالى سنة ٦٤١م، وكانت له سلطة كبيرة على بررية شيهيت كلها كما كان أيضا رئيساً لدير أبى مقار، وكان حلقة الاتصال بين الاديرة والآب البطريرك يرفع اليه مطالبها واحتياجاتها - كانت لديه مواهب متعددة وله نشاط ملحوظ فى كثير من المجالات وكان يهتم كثيراً بالكنائس والاديرة.

وبذل البابا بنيامين البطريرك ٣٨ (٦٢٢- ٦٦١م) مجهودات ضخمة فى إصلاح الكنائس والاديرة وكان القديس أنبا يحنس يبذل قصارى جهده فى إصلاح وبناء أديرة البرية وكان يسعى فى ذلك بهمة ونشاط وغيرة لخدمة بيوت الرب.

وكان قد أصابها تخريب كثير بعد غارة البربر الرابعة (١) التى وقعت حوالى سنة ٥٨٠م وكان هجوم قبائل البربر عنيفاً فى هذه الغارة حتى أن بوحنا موسكوس الذى زار مصر حوالى هذا

١) قام البربر بثلاث غارات فى القرن الخامس حوالى ٤٠٨ و ٤١٠ و ٤٤٤ وفى القرن السادس وقعت الغارة الرابعة حوالى سنة ٥٨٠ م.

التاريخ لم يذكر شيئاً عن زيارته للإسقيط مع أنه كان فى الطرانة والقلالى، ومما لاشك فيه أن عدد الرهبان فى ذلك الوقت كان قليلا وقد تشتتوا من المناطق الخطرة إلى الداخل فى مناطق أكثر أمنا.

تدريبه لتلاميذه على حمل قوة الشيطان

قال عنه تلميذه: ذات مرة وأنا بالدير الشرقى فى نيرى (١) وكنت جالساً فى الكنيسة يوم قداس أقامه القديس رأيت الشيطان قد دخل وكلوم كثيرة فى رأسه وقد شجته من وسطها فتعجبت وتساءلت فى نفسى متدهشاً ما هذه العلامة هكذا، وعلمت أن فضيلة قد تظهر فيخزى الشيطان حينذاك، وعندما قدموا القربان المقدس تقدمت لأصعد وآخذ من الاسرار المقدسة المملوءة خوفا ورعدة. وكان هناك شيخ له تلميذ وكان ذلك التلميذ قويا جداً يمشى خلف أبيه ليأخذ من الاسرار المقدسة، وفيما أنا أمشى جئت فى وسط الاثنين وكأنى بهذا التلميذ لكونه قوياً قد لكمنى لكما كثيراً، أما أنا فصنعت له مطانية قائلا اغفر لى. ولهذا إنحلت قوة الشيطان كلها وأصابت الكلوم رأسه.

١) يرتوح ونيرى وردتا فى بعض المخطوطات وقيل أنهما جبلان إما أنهما يجاوران جبل شيهيت أو أنهما موضوعان منه (تحفه السائلين).

كثيرة هى النفوس التى خلصت من قبل ذلك الطوباوى بكلامه وبهيئته وأعماله .

قال له أخ دفعة اننى أحب كتباً كثيرة ، قال له الشيخ إن الذى يستحق أن يقتنى له معرفة الله ومحبة نظره لايحتاج إلى كتب كثيرة ...

معاينة القديس الأرواح الشريرة ونصيحته

كان القديس يحنس يجلس فى الكنيسة فينظر الشيطان يدخل الكنيسة فى شبه نمس ويمضى الى قوم من الإخوة يغمزهم فى آذانهم، الذى كان يغمزه فى أذنه لوقته يقوم ويذهب ويتكلم عن صاحبه إما بنميمة أو بعمل آخر . وإذا ترك هذا يذهب إلى موضع آخر ويغمزه فى أذنه . وإذا قام الاخر فلوقت يصنع هكذا أيضا ، لأن الشيطان يعلم أن شدة عظيمة تصيب من يتكلم فى الكنيسة فيفعل هذا ليجعلنا ملومين .

من أجل هذا أوصونا أن نتحفظ لئلا نتكلم بالردىء فى الكنيسة فلا نستحق أن نأخذ من الاسرار المملوءة خوفا . فلهذه الذى يأخذ منها يجب أن يتحفظ بثبات وسهر لئلا يأخذ الحكم عليه .

الفصل الرابع

الاعلانات المقدسة

تصور لنا حياة القديس صورة جميلة لعصره وللقرن السابع عامة وقد امتاز هذا الآب باعلانات سماوية نالها كما امتاز بمشاهدة رؤى مقدسة وبشعوره المرهف بهيبة هيكل الله وكرامته فى قوة ويقظة ووعى شديد . وكان يهزم الارواح الشريرة ويحل قوة الشيطان وقيل عنه أنه عندما كان يصعد إلى المذبح ليقدس القرابين كان يرى الخلص مع السيدة العذراء وكانت بصيرته تكشف عن اسرار عظيمة عندما يرى هذه المناظر السمائية الغامضة فى المذبح .

الفصل الخامس

إرشادات القديس

كشف الافكار للأب الروحي.

كان تلميذ لأبينا القديس ساكناً على حدة وحده وكان الشيخ يحبه كثيراً وكانت له أيضا أمانة عظيمة فى الشيخ يعلمه الحقيقة فى غير حسد ويعرفه كل طريق الله ويدبره بكل مشورة حسنة. كان هذا التلميذ يقول: «كل تجربة تلحقنى إن كانت فى السر أو الجهر يعطينى الله راحة منها سريعاً اذا ما نظرت الى وجه الشيخ».

جاءت على ذلك الاخ تجربة فى ذلك الزمان، تلك التى يسمونها الحرب العظيمة وهى التجديف، حتى أنه من قبلها صار قلقاً جداً وأعتراه حزن عظيم وكان فى قلبه ضيق كثير، فمن تدركه هذه التجربة يتضايق جداً ويتعاظم حزنه الى أن يتحنن الله الرحوم عليه ولما رأى أن الضيق يشتد عليه جداً قام ومضى الى أبينا

أنبا يؤنس القمص وطلب اليه قائلا: أذكرنى يا أبى فانى متضايق ومتعب جداً وقد جاءت على شدة قاسية جعلتنى غريباً عن الله ومن نصيب قديسيه، فقال له الشيخ: ماهى، قال له: لا أستطيع أن أقولها بلسانى لانها خوف وفضيحة، فقال له الشيخ: ألعلها الحرب العظيم، هذا مايتعبك؟ فقال الاخ انها الحرب العظيم يا أبى، فقال له الشيخ، أنه روح التجديف. لايستحى الإنسان معه أن يفتح فاه على الله وعلى قديسيه بالتجديف والاستهزاء... هو الروح الذى يتعب القديسين بالاكثر ويجتهد أن لايدع الإنسان يذكر الله، يريد أن يجذب النفس إلى أسفل بقطع الرجاء... فلما سمع الاخ هذا إمتلأت عيناه بالدموع وقال هوذا الله قد أعلمك يا أبى بتعبى وحزنى، فقال له الشيخ: لاتخف ولاتقلق ولاتهرب من قدام هذا الروح الشرير يا إبنى، لان الله رؤوف يعرف أن هذه الافكار ليست هى منا ولا أنفسنا تريدها

فلا تطيب قلوبنا معه فى كل شىء يريد أن يصنعه لئلا يبطل عزمنا بل نقاومه بقوة السيد المسيح الذى يعضدنا. وأنت يا إبنى

فلا تقلق ولا تجزع ولا تعطى ذاتك الانحلال واللعب وكثرة الكلام ، بل إهرب إلى داخل مسكنك وتفرغ للصلاة واطلب إلى الله بقوة قلب ودموع ، ولا تعط ذاتك لشغل اليد على الدوام بغير إنقطاع بل التجىء إلى الله واحتمل منتظراً رحمة الرب كما قال أيوب الصديق انى هربت الى الله ليزدينى ، وأنا أؤمن أن الله سيعطيك راحة من هذه التجربة ...

عاد الاخ الى قلايته وصنع كما قال له الشيخ وتفرغ للصلوات والطلبات ولم يكن يهتم بشىء آخر سوى هذا مع شغل يد قليل وفى كل فترة بسيطة كان يقوم ويخر أمام الله ويطلب منه أن يرحمه ويعطيه نياحا من هذه التجربة . وأقام أياما قلائل وهو يصنع هكذا كقول الشيخ القديس وكان الشيخ يصلى عنه .

وفى أحد الايام بينما كان الاخ جالساً يعمل وفكره معلق الى فوق نحو الله صرخ صوت فى أذنيه قائلا : « إرفع عينيك إلى السماء » . الصوت سمعه بأذنيه وأما المتكلم معه فلم يره .

رفع عينيه الى فوق كما قال له الصوت قال فنظرت وإذا صبى قبيح أسود اللون معلقاً فى الجو بيديه ورجليه بشدة حتى خلت أنه

ينقطع من وسطه ، وبينما أنا أتأمله قال لى ذلك الصوت أرفع عينيك الى السماء فنظرت وإذا بجنود سمائية تتطلع لذلك الصبى الأسود المعلق فى الجو ، ورأيت أيضا ربوات من الناس على الارض يتطلعون إلى فوق يشاهدون ذلك الاسود... ثم قال لى الصوت هذا المعلق فى الجو هو الذى جلب عليك هذه الاتعاب كلها والتجارب ـ وهذه الجموع الكثيرة التى تنظرها فى السماء وعلى الارض يشاهدونه معلقاً فى الجو . هم القديسون يشاهدون حكم الله ويرون الغضب الذى جاء به عليه ...

يقول التلميـــذ :

ثم إنى قمت ومضيت إلى الطوباوى أنبا يؤانس وأعلمته بالذى رأيته وسمعته وكنت خائفاً لئلا يكون هذا الامر من الشياطين ـ أما هو فلما سمع ذلك فرح وعزانى قائلا : لا تخف يا بنى فليس هذا الامر باطلا بل صحيحاً . والآن علمت أن الرب قد سمع ورحمك من التجربة التى كنت متضايقاً منها ، ومن الآن لن يعود إليك ولن يتعبك بعد .

وقال له :

وأنا أيضا يا ابنى أصابنى هذا فى أوائل أيامى وهذا الحرب

بعينها أتعبتنى جداً وتضايقت منها وقلقت مثل ماصنعت بك أنت أيضا ، حتى قلت كلام أيوب انى أطلب الموت ولا أجده.

الصلاة بلجاجة يخلص من التجارب

فى أحد الليالى وقد صرت فى رؤيا كأن السماء قد انفتحت وكأن طقوس السمائيين والارضيين جميعهم وقوف أمام السيد فكنت أسأل من هو هذا الذى له المجد العظيم محيط به ، فقال لى واحد من القيام هذا المسيح ، وكنت مفكراً فى ذاتى أنه حان الوقت الذى فيه أشكو اليه ليحكم لى وكنت أطوف بقلب حزين أروم أن اقترب اليه وأشكو اليه فلم أستطع ، وبعد أتعاب كثيرة استطعت أن أجد والدة الإله القديسة مريم فطلبت اليها أن تتضرع إلى السيد المسيح من أجل لكى يخلصنى من هذه الشدة ، فقالت تعال أنا أحملك اليه أما أنت فاسجد له وأطلب منه قائلا:

ارحمنى يا سيدى لان طبيعتى ضعيفة ، وصنعت كما قالت لى سيدتنا كلنا وحملتنى وأوقفتنى أمامه ووقفت معى تحررت تحت رجليه ساجداً وطلبت اليه قائلا :

« يارب ارحمنى لأنى ضعيف ومسكين وخلصنى من هذا التعب الذى يحيق بى » .

فلم يجبنى بكلمة ـ فتشفعت العذراء القديسة طالبة أن يتحنن على ضعفى لان طبيعتنا ضعيفة ، فقال الرب سبق وأوضحت طريق الشفاء فليتخذ لنفسه هو وحده فيخلص ، فقلت ياسيدى لست أعلم ما هو الشفاء فأفهمنى الرب المثل الذى قاله فى الانجيل كان قاض فى مدينة لايخاف الله ولايستحى من إنسان وكانت أرملة فى المدينة تأتى اليه قائلة انتقم لى من يظلمنى » . فقلت نعم يارب ، فقال لى أمض وإصنع هكذا وأنت تخلص ،

ومن بعد هذا قمت من الرؤيا بخوف ورعدة عظيمة على وعلمت فى ذاتى انى كنت كسولا فى أمر خلاصى بعدم مداومتى فى الصلاة لله ، وأن هذا المثل يعلمنا أن نقترب اليه ونسأله بلجاجة ومن بعد هذا تركت عنى كل إهتمام وقلق شغل البيت وأعطيت قلبى للصلاة بقوة قلب عظيمة : وكنت أقوم فى كل وقت وأطلب من الله أن يرحمنى ويعينى لدرجة إنى كنت أقوم فى اليوم نحو ثلاثين مرة وأكثر ،

يقول القديس :

ومن بعد أيام قلائل كنت أصنع فيها هذا وبينما كنت منفرداً قلبى متعلق بالله وكنت أعمل فى شبكة تلفت وإذا بصبى صغير

أسود اللون جسده كله قروح، وكان قلقاً كمن هو فى السبى، يسرع إلى هذه الناحية وتلك، لايستطيع أن يجلس أو يقف. نظرت اليه وأنا أفكر من هو، وقفت أصلى فصار كأسير وشرع يصرخ حسبك حسبك ... كفى محاربة، فلست أكلك بعد، وكان قلقاً يسير إلى هنا وهنك كالمربوط فى الشبكة. سألته من أنت؟ أجاب: ألم تعرفنى من أنا؟ أنا الذى جلبت هذه الاتعاب عليك، وسألته ماهذا الذى فى جسده؟ قال انها رماح. قلت ومن ياترى صنع بك هكذا؟ قال: فى كل مرة تقف للصلاة تصيبنى ضربة، حتى نالتنى هذه الجراحات جميعها بسبب طلباتك، فلا تصلى من الآن ... فلست أتعبك بعد، وكان مفتضحاً خائفاً ومرتعداً من الصلاة.

قال القديس:

وداومت على الصلاة بقوة قلب حتى غاب ولم يستطع منذ ذلك اليوم أن يعود ليتعبنى البتة.

فأنت أيضا يا بنى تقو وثبت قلبك فإنه منذ اليوم قد أعطاك الرب راحة من هدة الحرب فلا تدع قلبك يجيزها بغير إهتمام لان أعداءك يحاربونك مرات أخرى ولا يتخلوا عنك البتة، فتحفظ ولتكن متقدما إلى الامام تصنع أعمالا حسنة فان الله

لايتخلى عنك ولايسلمك إلى أيدى أعدائك، ولما نال الأخ قوة قلب وعزاء مضى إلى قلايته، ومن ذلك اليوم لم تعد هذه الحرب تتعبه.

يقول القديس تلميذ الشيخ:

قلنا لكم هذا لعلمكم بهذه الامور فيكون فيها عزاء ويقظة للأنفس المتضايقة التى تحزنها الحروب، إذا سمعوا وعلموا لايجزعوا ولاينحلوا بل يقوموا بقوة، لأننا قد علمنا هذا من قبل أبينا القديس أنه ليس شىء يستطيع أن يهدم هذا الفكر إلا الدموع والطلبة إلى الله بلجاجة مع رحمة ومعونة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح.

طلب ملكوت السموات:

سأل إخوة أبانا القديس أنبا بيمن لماذا أنت رجل خائف من مجد الناس بهذا المقدار؟ أجاب وقال أهناك إنسان ناطق يخاف الله إذا قال له قوم أترك خصمك فى ملكوت السموات ونعطيك كل أموال الارض وكل الكرامات التى تعطى للناس، يطيب قلبه بكلامهم ويفتخر بكرامتهم؟؟ قالوا: كلا. فأجاب الشيخ إذن فابكوا على وعلى من يشبهنى لان هذا الملكوت هو هكذا الإنتهاء لعظمته، أما لذة الجسد والسيرة الفاسدة فلا تستحق شيئاً...

احتمال ما يأتي علينـــا :

سأله أخ ذات مرة قائلا إصنع محبة يا أبي وقل لي كلـــة استطيع بها أخلص ، فقـــال له الشيخ : أمض واحتمل كل عار وخسارة تأتي عليك، لانه في الوقت الذي يأخذ فيه الإنسان على صاحبه أمراً يتسلط عدوه عليه مثل ماسبق وفعله آدم إذ أخذ من الشجرة فوجد العدو طريق الدخول إلينا لاننا قد آثرنا الشجرة على الصاحب .

الاستعداد للخدمة :

كان خوف الله ثابتاً في نفسه وبالاكثر في اليوم الذي يقدس فيه . وكان يتحفظ لئلا تخرج كلمة بطالة من فيه ، حتى أنه من قبل خوف الله الذي كان فيه وعظم تحفظه إستحق نعمة إدراك الاسرار، وإنه دفعات كثيرة عندما كان يتمم القربان المقدس كانت تدرك نفسه راحة عظيمـة كمن انتقل إلى الدهر الآخر فيخال في نفسه كأنه ليس كائناً على الارض، وإذا أكمل القداس الطاهر وبلغ إلى وقت تقديس الكأس كان ينظر اليه مثل شيء يغلي وكان لايستطيع ذلك براحة لعظم خوفه .

تمييز الخطاة عن الصديقين :

ولكثرة ورعه وعظم تقواه كان يعرف الخطاة ويميزهم من

الصديقين نظر مرة أحد القسوس آتياً إلى الكنيسة ومعه أرواح نجسة محدقة به ، فلما وصل القس إلى باب الكنيسة خرج ملاك من الهيكل وبيده سيف من نار وطرد عنه الارواح النجسة، فدخل وارتدى ملابس الكهنوت وقدس وناول الشعب من الاسرار المقدسة ، ثم خلع الملابس الكهنوتية وخرج فعادت اليه تلك الارواح الشريرة وأحدقت به كالاول .

هذا القول قاله القديس الانبا بؤلس لجمع الاخوة الرهبان ليعرفهم أنه لافرق في خدمة الـــكهنوت بين الكاهن الخاطىء والصديق ، لان الخبز والخمر إنما يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه الاقدسين بقوة التبريك والدعاء من الكاهن الحديم ولاجل أمانة الشعب أيضاً .

وضرب لهم مثلا قال : ان خاتم الملك ينطبع على الحديد والذهب والخاتم واحد لايتغير ، كذلك الكهنوت واحد مع الخاطىء والبار ـ والرب هو المجازي لكل واحد حسب عمله .

الفصل السادس

حديث للقديس قبل نياحته

وعظته الجامعة ووصاياه

لما قربت نياحة أبينا الطوباوى كان ينفرد فى موضع توحده وتنيح أحـــد القديسين فى زمانه وكان متوحداً وصديقاً له ورآه فى رؤيا وسلم عليه فقال له: «مبارك هو الرب لانه رحمنى جداً، عرفت يا أخى الحبيب أنى قد قبلت أتعاباً كثيرة فى البرارى ولم أجد شيئاً من الراحة حتى خرجت منها فتعال أنت أيضاً». هذا قاله ليعلن له انتهاء حياته ... ولما قام القديس فى الصباح ومضى إلى الكنيسة وقدم القربان الطاهر نظر هذه القوة التى على المذبح وهى ترشم الخبز والكأس، كما قد أعلم قوما من أحبائه عندما طلبوا منه أن يخبرهم الحق.

ومن بعد هذا اقتربت أيام انتقال أبينا الطوباوى وكان هناك شيخان يحبهما كثيراً فأرسل اليهما وقال لهما أتعلمان لماذا أرسلت فى طلبكما فقالا له لا، فقال لهما أنى أرسلت لكما لاتناول معكما قليلا من الطعام فإنى أظن انى لست آكل معكما بعد. ولما

قال هذا حزنا جداً، فقالا له أترى الله يحرمنا أبوتك المقدسة وتتركنا أيتاماً. أما هو فقال لهما إرادة الرب تكون. فلما رآهما متألمين كان يتبسط معهما ليأكلا يسيراً وأكمل كلامه معهما وتعزوا جميعاً بكلام الحياة الابدية.

وقد أبتدأ المرض يدب فى جسم القديس رويداً رويداً، وحتى فى مرضه كان يقسو على ذاته فيقوم بخدمات فكان وهو راقد على مضجعه مريضا يذكر الوصايا التى فرغ منها. وفيما يلى الوصايا التى وعظ بها.

عظة القديس ووصاياه

١ - حفظ إيمان الكنيسة

« يابنى أجعلوا خوف الله بينكم ، إحفظوا إيمان الكنيسة الجامعة إلى الموت وابتعدوا عن كل تحديف الهراطقة حتى السلام عليهم أرفضوه ، وكونوا ثابتين على الايمان المستقيم فانه إذا قوم الإنسان كل الاعمال الحسنة ولم يكن له إيمان مستقيم فلن يربح شيئاً. لأن هذا ماقاله يعقوب الرسول، أنه إذا حفظ الإنسان الناموس كله وسقط فى واحدة منه فقد صار مدانا بالكل ، وبولس الرسول أيضا يقول، أنه بدون الايمان لايستطيع أحد أن يرضى الله ... فليكن فيكم إذن الايمان العامل بالمحبة .

من أجل هذا يا أولادى اقتنوا لكم إيماناً مستقيما فى الله ، وإذا سقطتم فى تجربة أو مرض أوخسارة أموالكم أو إضطهاد فلا تجعلوا شيئاً من هذا العالم يعرقلكم عن محبة الله . وأيضاً اقتنوا لكم محبة بعضكم البعض .

٢ - المحبـــة

عظيم هو عمل المحبة لان ربنا يقول فى الإنجيل إنه بهذا يعلم

الجميع أنكم تلاميذى إذا أحببتم بعضكم بعضاً ، وأيضا بطرس الرسول يقول إن المحبة تستر كثرة الخطايا.

فمن أجل هذا فلتكن هذه الفضيلة مثمرة فيه وهذه ثمرتها إذا نظرتم واحداً فى تجربة إتعبوا معه ، إذا نظرتم عريانـــاً استروه أو جائعاً أشبعوه أو غريباً أقبلوه اليكم ، وإذا رأيتم غاضباً عليكم يبغضكم أقبـــلوه اليكم بوداعة وأكرموه - وإذا كان واحد يجذبكم الى المزاح أو النميمة أو عمل أمر ردىء أهربـــوا منه ، فإن هذه الاعمال ليست من الله بل من الشيطان .

كونوا مكرمين لكل أحد ، رحومين متواضعين ، طويلى الروح وأغفروا بعضكم لبعض .

٣ - الصـــلاة والوحدة والعبادة

كونوا أيضا محبين للصلاة والوحدة والعبادة - وعمل الصلاة وفعاليتها على هذا النحو :-

لاتتركوا ذكر الله كل حين ، دوما تتلونه . تطلبونه على الدوام فى كل موضع . إن كنتم تأكلون أو تشربون ، تمشون فى الطريق أو تعملون عملا ما لأن الصلاة :-

(ا) تهدىء ألم القلب ...

(ب) تيبس الشهوة ...

(ج) تطرد الشياطين ...

(د) تزيل الخطية ...

(هـ) تجدد النفس ...

وعلى العموم تجعل كل خطية شريرة غريبة عن الإنسان كما قال مخلصنا فى الانجيل :

صلوا لئلا تدخلوا التجارب » .

ويعلمنا بهذا أنه إذا كان الإنسان يصلى كل حين فلن يستطيع شىء من الافكار الشريرة أى التجارب أن تقف أمامه .

والوحدة أيضا عملها أن تبتعدوا عن كل عمل ردىء ولاتشتغلوا بشىء من هموم هذا العالم، وذلك أن الوحدة وعدم الاهتمام تجعلان القلب فى هدوء، فيعرف الانسان أخطاءه ، ويفهم كل زرع الشيطان وبالجملة يصير الإنسان ممتحنا ومصلحاً لذاته ولاخيه .

احفظوا العبادة بثبات ولاتتكاسلوا فيها لأنه فى الوقت الذى يتكاسل فيه الإنسان تصير أفكاره مظلمة . من أجل هذا اقتنوا لكم عبادة محدودة ولاتعملوا أكثر من المقدار أو تسلموا ذواتكم للانحلال بل حدداً محدوداً رتبوه لتقيموا زمانكم كله فى راحة بغير قلق، لانه قد قال سليمان الحكيم : لاتصنع البر بزيادة أى لايسلم الإنسان نفسه إلى عمل أكثر من قوته ، إذا صليتم أو صمتم وإذا أكلتم أو شربتم وإذا رقدتم أو عملتم عملا آخر ففى كل عمل إعملوا بقدر .

٤ - الطهـــارة :

اقتنوا لكم الطهارة كما قال بولس الرسول : « اسعوا فى أثر السلام مع كل أحد والطهارة التى بدونها لايعاين أحد الرب » . وربنا أيضا يقول، « طوبى لأنقياء القلب لانهم يعاينون الله». ومن أجل هذا فليكن الاشتياق للطهـــارة فيكم ، فى كل حين تشتهونها ، تتعبدون لكى تصيروا هياكل مقدسة لله وتشابهون الملائكة . واقتنوا لكم تواضع القلب لبعضكم البعض واطلبوا إلى الله بقوة قلب أن ينعم عليكم بهذا فى كل حين .

٥ ــ التواضـــع :

عمل عظيم هو التواضع لله ـ انه يحل كل قوة الشيطان لأن ربنا لما جاء إلى العالم أخذ شكل مسكنتنا وتواضع حتى الموت موت الصليب ، واجتمل كل عار بتواضع ووداعة مثل ماقال: «تعلموا منى فانى وديع ومتواضع القلب تجدوا راحة لنفوسكم».

وكان القديس يقول لنا أيضا : تعلمون يا أولادى أننى لم أسبب ألماً قط لاحد أنى الى قلايتى ...

الفصل السابع

نياحة القديس

ثقل المرض عليه جداً وكان تلاميذه فى بكاء وحزن ولما قرب الطوباوى أن يتنيح لم يتخل قط عن ذكر الله ـ بل كان يتلوفى كلامه كعادته فى كل حين.

ولما قربت الساعة التى يخرج فيها من الجسـد كان يقول هذه الكلمات : « بنورك نعاين النور » ومرة « تسـير من قوة إلى قوة » ولم ينقطع ذكر المخلص من فمه حتى أسلم الروح وأخرج الله نفسه بغير قلق بسكون وراحة وهـدوء وأكمل سعيه بشيخوخة صالحة فى آخر شهر كيهك ، ومضى إلى الرب الذى أحبه بمجد وكرامة.

يقول فى ذلك الأب البطريرك القديس كاتب سيرته : ـ

« عظيم هو الحزن الذى شملنا فى ذلك اليوم من أجل اننا فقدنا أباً كهذا ، كان كل واحد يبكى ويطلب أباه ـ الشيوخ يطلبون من كان يعزيهم فى شيخوختهم برحمة المسيح ومحبته ،

والشبان يطلبون من كان يهديهم إلى الفضيلة ويعلمهم التواضع والعبادة وقد حزن الكل لنياحته لأن كان للجميع أبا معزيا ،، وكانت نياحته حوالى سنة ٦٧٥ م.

ثم يقول :-

لقد كفنا جسده المقدس وقدمنا القربان المقدس عليه وحملناه لندفنه .. ويا للأحزان الكثيرة التى كانت فى ذلك الوقت !!

عندما رفع جسده المقدس كان الجمع كله قد تحرك من قبل الله كل واحد منهم يجتهد أن يلمس جسده المقدس ليأخذ شيئاً يسيراً من كفنه - حتى أنه بأتعاب كثيرة استطعنا أن نتركه إلى آبائه بمجد وكرامة . وبلغ عمره تسعين عاما (١) ؟ وكان ذهنه صافياً ولم يتغير عن عبادته البته بل كان فرحا فى العبادة إلى هذا الحد بالتقشف العظيم والصلوات ، حتى أنه لم يستطع أحد من الجدد فى سيرة الرهبنة بلوغ ما وصل اليه فقد وصل إلى هذه

١) ذكرت مصادر كثيرة منها كتاب « قديسو مصر ، د. أوليرى » وكتاب « أديرة وادى النطرون ، ايفلين هوايت » أن نياحته كانت حوالى سنة ٦٧٠م - واذ بلغ ٩٠ عاما كما أوضحت المخطوط، فيكون ميلاده حوالى سنة ٥٨٠م وهو ماذكرناه سابقاً.

الشيخوخة وهو منفرد فى قلايته يصنع مطانيات كثيرة فى كل يوم فى وحدته كل حين لعظم اشتياقه إلى الله وكان يهرب من كل هموم العالم وكان وديعاً مع كل أحد حلو اللسان فى كلامه متواضعاً فى قلبه رؤوفا رحيما بكل أحد ، كاملا فى كل فضيلة ، بركة صلواته تكون معنا آمين .

+ + +

تلاميذ القديس

ومن تلاميذه ابياخس والكوكبان العظيمان أنبا افرآم وأنبا جورجى والقديس زكريا الذى صار أسقفاً على كرسى دصاء (١) كما تتلمذ للقديسين ابرآم وجورجى كثيرون من الآباء الكبار منهم الأنبا أغاثون العمودى والانبا زكريا أسقف سخا ، بيتولوميثوس أسقف منوف العلا ، الانبا مينا أسقف تمى.

١) سيرته مدرجة بكتابنا « البطريرك أنبا اسحق ٤١ » .